كلمة الدكتور مروان المحاسني
رئيس مجمع اللغة العربية

السيدة الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية

الأستاذ الدكتور محمد عامر ماردیني وزير التعليم العالي

أيها الحفل الكريم:

إني إذ أشكر للسيدة الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية تكرمها برعاية هذه المناسبة الحزينة، أقول: في هذه الأيام الحالكة التي تواجهنا فيها أعاصيرُ في قلبها نار، وتتراكسُ علينا فيها المصائب، يجمعنا اليوم قصدٌ نبيل، بل واجب وطني، هو استذكار مزايا وأعمال أخٍ عزيز، وهو فقيدنا الكبير الدكتور عبد الله واثق شهيد رحمه الله.

لست في صدد تأبينه مُهْتَبِلًا ما يعتبره البعض فرصةً تُستغل للإطراء والتقريظ، بل إني أعتمد مسارًا فكريًا نزيهًا، يحاول إبراز ما يجب توضيحه من مآثر وعطاءات تستحق تسليط الأضواء عليها بكل أمانة، خدمةً للحقيقة، ووصولًا إلى صورة مضيئة نَودّ أن يحفظها مجتمعُنا.

لم أعرفْه فتىً أو طالبًا، ولو أننا تخرجنا في جامعة دمشق في سنتين متتاليتين ١٩٥٠ و١٩٥١، هو في كلية العلوم وأنا في كلية الطب، وما ذلك إلا لأن كلية الطب لم تخرج من مواقعها الأصلية التي أنشأها مؤسس الجامعة الدكتور رضا سعيد رحمه الله، في المستشفى الوطني وتوابعه، على حين أُحدِثت كلية العلوم في الأربعينيات حين جُهّزت الثكنة الحميدية الكبيرة المطلّةُ على المرجة الخضرا، لتكون أمَّ الكليات الجديدة، تلمّ شمل الآداب وما فيها من علوم إنسانية، والعلوم بما فيها من علوم دقيقة، قبل أن تضاف إليها كلية الحقوق.

لقد كان لقاؤنا حين كنا مُدرسَين أيام الجمهورية العربية المتحدة، ورشحتنا جامعتنا مع زميلنا الدكتور وفائي حقي أستاذ الكيمياء رحمه الله، لنشارك في تأسيس فرعٍ في دمشق للمجلس الأعلى للعلوم القائم في القاهرة . فقد دعينا إلى مقابلاتٍ إفرادية مع الدكتور عبد الفتاح إسماعيل الأمين العام للمجلس لتوضيح المهام، ولعلّ المقابلةَ كانت اختبارًا. ولن أنسى أنني سمعت من الأمين العام في تلك المقابلة ما تنشرح له الصدور، فقد بسط أمامي نظرةً مستقبلية رائعة لمجلسٍ يجمع علماء البلاد، للمباشرة بإجراء بحوثٍ علمية أصيلة تخدم متطلبات تنمية بلادنا، وعلى رأسها مشروع السد العالي وما يترتب على إنشائه من تأثيرات في حياة البشر والمخلوقات، وفي الحياة الاجتماعية في مجالات السكن والغذاء .

وجميعها أمور تتطلب دراساتٍ قَبْلِيَّةً تقام قبل أن يصلَ المشروع إلى تمامه، وتنسكبَ المياه غامرةً تلك المساحات الواسعة المحيطة بنهر النيل. وهكذا كان انطباع زميليّ حين قبلنا المهمة وباشرنا العمل لتكوين السكرتارية الفنية للمجلس الأعلى للعلوم.

وكان اعتزازنا بهذه المهام الملقاة على عاتقنا يزيدنا حماسة ، إذ كنا قد عدنا قبل مدة قصيرة إلى جامعتنا بعد إتمام اختصاصنا في الغرب سنة ١٩٥٨، يعمُّنا تَوقٌ شديد إلى المشاركة في رقي بلادنا.

فعكفنا معًا على تنسيق الأعمال المطلوبة كلٌّ في اللجنة التي تولى أمانتها، إذ كان الدكتور شهيد أمينَ لجنة النشر العلمي التي يرأسها أستاذه الأستاذ وجيه السمان، وكنت أمينًا للجنة الأفراد العلميين التي يرأسها أستاذي الدكتور عزة مريدن، وتولّى الدكتور وفائي حقي لجنةَ التجهيزات العلمية التي يرأسها الأستاذ وجيه القدسي. وكان أن التحق بنا في السكرتارية الفنية في السنة التالية الدكتور عبد الرزاق قدورة رحمه الله.

لقد كان عملنا، إضافةً إلى حضور جلسات اللجان وجلسات المجلس، أن نقدم الدراسات التفصيلية عن الأمور المطروحة، عن طريق أمين المجلس الأستاذ زهير الكتبي، لتعرض لمناقشتها في المجلس، قبل أن تُرسل إلى المجلس الأعلى في القاهرة. ومن الدراسات الهامة التي قدمناها إلى المجلس ثم ذهبنا إلى القاهرة لمناقشتها في المجلس الأعلى، الخطةُ العلمية للإقليم الشمالي لعام ١٩٥٩، وقد اعتمدنا المعطيات التي حصلنا عليها من الوزارات المختلفة، عن طريق استمارات توضّح الغرض من هذا الاستقصاء.

ومن جهة أخرى فقد كان الدكتور شهيد يتصل بالجامعيين ليرسلوا مصطلحاتهم العلمية إلى المجلس، لتناقش في لجنة النشر العلمي، تمهيدًا لعرضها على مجمع اللغة العربية لاعتمادها.

وإنها فرصةٌ أتيحت لي أن أتعرف حقيقةَ رجلٍ كامل المروءة، واثقٍ من نفسه، لا تُخِيْدُه الصعوبات عن قناعاته، ولا تُخيفه التحديات، يتمتع بصبر عجيب يتيح له الوصول إلى أهدافه دون الاختصام مع الذين يتشبّثون بوجهات نظرهم.

وكان هذا كله واضحًا حين طُلب إلينا التحضير لأسابيع العلم المتتالية التي جعلت من المجلس الأعلى للعلوم منبرًا لإحياء التراث، وعَلَمًا يُطلّ على متطلبات المستقبل العلمية. فقد كنا نؤلف اللجان التي تختار البحوث متجاهلةً جميع المؤثرات الشخصية، في موضوعاتٍ تعيد إلى التراث موقعَه عن طريق توضيح المعروف عن أمثال البيروني، وابن زهر، وابن البيطار، والكندي، وجابر بن حيان، وهي موضوعاتٌ ليس الغرضَ منها الافتخارُ بالتراث، بل تحفيزُ المجهود العلمي اللازم للّحاق بالعالم المعاصر، وإبرازُ سَبْق الثقافة العربية الإسلامية إلى إنتاج منهجية علمية أخذتها أوربا عنها.

وقد تجلّى التقدير لعمله في المجال العلمي حين صدر مرسوم بتعيينه نائبًا لوزير التربية لشؤون الجامعات عام ١٩٦٦ وأُلحق بمرسوم آخر بعد شهور قليلة بتسميته

وزيرًا للتعليم العالي، وهذا ما مكنه من وضع أسسٍ متينة للعلاقة بين الجامعات وبين الوزارة، إضافة إلى إعادة النظر في المستويات التدريسية لإصلاح ما فيها من خلل وجعلِها تتطابق مع متطلبات العصر.

وكان لما بذله من جهود استمدها من خلفيته الثقافية العلمية العالية - متأثرًا بأساتذته الكبار في الجامعة، ومرتكزًا إلى اتصالاته العلمية المرتبطة بتحضير الدكتوراه في العلوم الفيزيائية في جامعة باريس عام ١٩٥٧، إذ كانت أطروحته للدكتوراه عن المُسرّ-عات الخطية التي تسمح بدراسة تركيب قلب المادة، أي بنيان المادة في أعمق أغوارها – وكذلك لما تميَّز به عملُه في تأسيس وزارة التعليم العالي، أن كُلّف إنشاءَ مركزٍ للدراسات والبحوث العلمية عام ١٩٧١، وهو المركز الذي احتضن أرفع أنواع البحوث العلمية في فروع العلم المختلفة، وذلك بالتعاون مع الموفدين الذين عادوا من أوربا وأمريكا حاملين لأعلى الشهادات العلمية.

ولا شك بأن مركز الدراسات والبحوث العلمية قد أدخل سورية في لبّ الدراسات العالمية عن تركيب المادة، وكيفية الإفادة من طاقةٍ يمكن لها أن تقدّم الخدمات الجلّى للبشرية، بدل أن تكون طاقة مُخرّبة. وأن خبراتِه العلمية المتراكمة قد مكّنته من أن يجعل من هذا المركز مختبرًا مفتوحًا تُدرس فيه جميع احتياجات البلاد التطبيقية في العلوم. وذلك دون أن ينقطع عن تدريس فروع الفيزياء في جامعة دمشق . وهذا ما دفعه إلى إدخال مفهوم جديد إلى ملاك الجامعات هو إحداث هيئة فنية يتدرّج أعضاؤُها في الارتقاء العلمي عن طريق بحوث تقرها الجامعة، ليكونوا مؤازرين لأساتذتهم ومتمكنين من العلم عن طريق بحوثهم الشخصية، وهذا ما جعله مُصرًّا على ضرورة فتح أبواب التفرُّغ أمام الأساتذة الجامعيين.

أيُّها الحفل الكريم:

لا أريد أن أسترسل في ذكر عضوية اللجان التي مثّل سورية فيها، كاللجنة الاستشارية في المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة، ولجنة الخبراء في اليونسكو لمسائل البحث العلمي وحاجات الإنسان عام ١٩٨٠، وقد رأس لجنة استراتيجية العلوم والثقافة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

وكانت له أيادٍ بيضاء رئيسًا للجنة تطوير قوانين التعليم العالي وأهمها قانون تنظيم الجامعات، وقانون مجلس البحث العلمي، وقانون المجلس الوطني للسياسة العلمية والثقافية.

إن الانخراط في هذه اللجان العليا المهتمّة بتطوير العلوم في سورية لم يمنعه من المثابرة على نشر البحوث العلمية في مجال تخصصه في عدد من المجلات العالمية، وذلك إلى جانب مؤلفاته التدريسية في كلية العلوم.

ويتبين من كل ذلك أن الدكتور واثق شهيد رحمه الله كان رجلَ المهمات الصعبة. فقد اختار موضوعًا صعبًا لأطروحته في باريس ، كما أنه قد تمكن بفضل عمق معرفته أن يحقق بإنشاء مركز الدراسات والبحوث ما كان يطمح إليه المجلسُ الأعلى للعلوم وذلك حسب أعلى المتطلبات الحداثية.

لقد انتخب الدكتور شهيد عضوًا عاملًا في مجمع اللغة العربية عام ١٩٨٨ وأصبح الأمين العام للمجمع منذ عام ١٩٩٦ وحتى عام ٢٠٠٨.

واتّسمت ممارسته للأمانة بما هو معروف عنه من صبرٍ وأناة، ودقةٍ في معالجة المشكلات، وحنكةٍ في الوصول إلى الأهداف المرجوة.

فهو الذي أدخل إلى مجمعنا مفهومًا جديدًا كان قد طبقه على الجامعات وهو إيجاد هيئة فنية موازية للوظائف الإدارية في المجمع، وأفرادها جامعيون أرادوا الاستمرار في

بحوثهم العلمية، يستفيد المجمع من وجودهم أمناء للجان يشاركون الأعضاء العاملين في بحوثهم، كي يبقوا متدرجين في سلم الشهادات العلمية العليا.

وقد كان كذلك الدافع الأساسي لقيام مشروعٍ كانت الحاجة إليه مُلحّة هو توحيد المصطلحات العلمية التدريسية في جامعات القطر، بعد أن تبيّن وجود الكثير من الاختلافات بين جامعة وجامعة أخرى وحتى بين قسم وقسم آخر، وذلك تبعًا للمشارب الثقافية الأجنبية التي حمل الأساتذةُ تأثيراتها في تدريسهم. ولذا فقد جمعنا مسارد جميع الكتب التدريسية في العلوم، المعتمدة في جامعات القطر، وألّفْنا لجانًا متخصصة تنظر في توحيد تلك المصطلحات.

ومن حق فقيدنا أن يكون أولُ معجمين علميين حديثين نشرهما مجمعنا قبل بضعة شهور هما معجما مصطلحات الفيزياء والكيمياء اللذين أنتجتهما لجنتان كان يرأسهما منذ عام ٢٠٠٨، وقد أرسل المجمع المعجمين إلى وزارة التعليم العالي ليكونا المرجعين المعتمدين لكل ما يَرِد في كتب الفيزياء والكيمياء الجامعية في سورية، ومازالت لجان العلوم الأخرى تتابع أعمالها.

أيها الحفل الكريم:

لا يرقى بياني إلى تعداد الوجوه المتعددة التي أبدى فيها فقيدنا تميزًا وهمّة عالية لا تعرف الكلال، ولعل موهبةَ التأسيس كانت الطابع الأشمل لنشاطاته. فكان من مؤسسي المجلس الأعلى للعلوم، ثم أسس وزارة التعليم العالي وانتهى إلى تأسيس مركز الدراسات والبحوث وقد أبدى في هذه المهام جميعًا أصالةً فكرية حقيقية، وحكامةً رشيدة، وطموحًا وطنيًا لا حدود له.

وهكذا رأينا حياة الدكتور واثق شهيد رحمه الله تنساب بين منارات ثلاث: منارة المجلس الأعلى للعلوم الهادف إلى إعادة النشاط العلمي محورًا من محاور الحياة الفكرية، ومنبرًا تعيد فيه أسابيع العلم المتتالية ذكرى علماء الحضارة العربية الإسلامية، وكان آخر أسبوع للعلم عام ٢٠٠٠. وأما التعليم الجامعي فكان ثاني المنارات إضافة إلى وزارة التعليم العالي، فإن كانت الوزارة عابرةً في حياته فإنه استمر في التعليم مدة لا تقل عن أربعين سنة استفاد فيها طلابه من خبراته وطاقاته التعليمية. وتبقى المنارة الثالثة وهي مجمع اللغة العربية حيث كان من أشد المدافعين عن ضرورة إدخال التغيرات العلمية إلى لغتنا، ليصل أبناء مجتمعاتنا إلى تفهّم تلك التغيرات العالمية تفهمًا حقيقيًا. ذلك أنه لا بد من إيجاد تطابق عضوي بين اللغة وبين واقع مجتمعاتنا، وما يتطلبه الأفراد من مرتكزات لغوية لفهم ما لا يمكن لهم فهمه بغير لغتهم الأصلية. وإن توطين العلوم الحديثة في لغتنا العريقة يتطلب الإسراع في إدخال التغيرات العالمية إلى لغتنا قبل أن تَفرضَ نفسها مصطلحاتٍ تدخل اللغة كتلةً صماء محمولة على ألفاظ غير عربية.

لقد كان الدكتور شهيد واحدًا من جيلنا، ذلك الجيل الذي لم يُحل انفتاحه على الغرب دون تمسُّكه بأصالته واعتزازه بتراثه المجيد، في مسار نهضوي متميز يحدد الوسائل و يَرُوْزُ الصعوبات قبل الانطلاق في العمل.

ولقد ضمّ الدكتور شهيد جهوده إلى جهود زملائه في مجمع اللغة العربية في خطة تحديثية للغة تتساوق مع الإيقاع المتسارع لعمليات يفرضها الوعي المجتمعي الراغب في إعادة لغتنا إلى موقعها العالمي.

فإن مسعانا إلى الارتقاء ببلادنا إلى مصاف الدول الراقية لن يبلغ منتهاه إلا بعد أن نصل إلى تطابق حقيقي بين لغتنا وبين اللغات العالمية، في حسن التعبير ودقة المعاني. نحن نصبوا إلى لغة عالية تحمل علومًا دقيقة واضحةَ المفردات سليمةَ التركيب، تعتمد المخزون الثقافي واللغوي الذي تنفرد به لغتنا.

لهذا فلن نقبل أي قطيعة معرفية بين ماضينا وحاضرنا، بل نؤكد صلوح لغتنا لاستيعاب العلوم ومسايرة تطوراتها. وإنّ الدكتور شهيد من حَمَلَة هذه الرسالة وله مآثر كثيرة في خدمة لغتنا.

رحم الله الدكتور عبد الله واثق شهيد وأسبغ عليه رضوانه، وأحسن إليه.

أشكر لكم مشاركتكم مجمعنا في أحزانه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.